

المؤرخ ومدى مسؤوليته عن الحرب والسلام

■ بقلم الدكتور محمود عواد

التاريخ لغة: هو الاعلام بالوقت وما وقع فيه من حوادث^(١) قال الجوهرى (ت-٣٩٨هـ): التاريخ تعريف الوقت والتورخ مثله، يقال: أرخت وورخت^(٢)، ويبدو ان الكلمة عربية الاصل، بدليل قول الاصمعي (ت-٢١٦هـ): بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب تورخا، وقيس تقول: أرخته تأريخا^(٣)، وعلى أية حال فإن الكلمة تطلق في العربية والانجليزية والفرنسية والالمانية على أحداث الماضي كله، وعلى المحاولات التي تبذل لمعرفة الماضي وتسجيل أخباره^(٤).

ووضع ابن خلدون (ت-٨٠٨هـ) تعريفا محددا لعلم التاريخ قال فيه: «ان التارخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع لدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل الكائنات

أما تعريف التاريخ إصطلاحا، فقد اختلفت عبارات العلماء المسلمين فيه، وذلك لسعة موضوعاته، فالمؤرخون في القرون الثلاثة الاولى للهجرة النبوية الشريفة، لم يدونوا تعريفا كاملا ومحددا لعلم التاريخ، وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه. قال خليفة بن خياط (ت-٢٤٠): «هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدد نساءهم، ومحل ديونهم»^(٥).

الأحوال المعارضة الموجودة للانسان وفي الزمان»^(٩).

وذهب السيد قطب الى أن التاريخ هو ليس الحوادث، إنما هو تفسير للحوادث والاهتداء الى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمان والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان^(١٠).

من هذا كله نخلص الى القول: ان التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت، ومن حيث التفسير والتعليل والربط، فهو بإختصار: الانسان في الزمان^(١١).

ان موضوع التاريخ موضوع حي، والصلة وثيقة بين التاريخ والمؤرخ، إذ ان المؤرخ دون حقائق لا جذور له، والحقائق دون مؤرخ، مجردة من الحياة والمعنى، فالتاريخ عملية متصلة بين المؤرخ وحقائقه، أو حوار متصل بين الماضي والحاضر^(١٢)، والتاريخ صناعة كبيرة الأهمية عظيمة الاثر عظيمة الفائدة، شديدة الخطر والضرر، والمؤرخون خطيرون وخطرون، وهم على شفا جرف هار الى النار، لكل هذا يتوقع أن يكون للمؤرخ وما يكتبه من مادة دور كبير ومسؤول

ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وحليق^(١٣)، ويقول المقرئزي (ت-٨٤٥هـ): «إن التاريخ هو الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي^(١٤)، كما عرفه محمد بن سليمان الكافيجي (ت-٨٧٩هـ) بأنه علم يبحث فيه عن الزمان، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته^(١٥).

أما السخاوي (ت-٩٠٢هـ) فقد ذكر ان التاريخ هو: «التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة، وصحة، وعقل وبدن، ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص وعن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملحمة وتجديد فرض، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب، وفتح بلد وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الانبياء وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة، ومقدمتها، وقال: «وتاريخ كل شيء آخره، وفي الوقت غايته وفي الوضع الذي ينتهي إليه، والحاصل أنه فن يبحث عن وقائع الزمان، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة

عن السلم والحرب، والحب والكراهية، فالتاريخ هو المادة الأساسية التي تجمع بين الشعوب إن أحسن إستعمالها، وهو المادة الأساسية للتفرقة بين الشعوب إن أسىء استعمالها إن قصد به ذلك.

قال ابو جعفر الطبري (ت-٣١٠هـ) في مقدمة كتابه «تاريخ الرسل والملوك» مبينا طبيعة الأخبار التي ينطوي عليها: «فما في كتابي هذا خبر يستكره قارئه أو يستشفعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا^(١٢)، فجاء المؤرخون، أو من يدعون التاريخ-في غالبيتهم- واستخدموا ما وافق أهواءهم من روايات ضعيفة فأثاروا بذلك الفتن والحروب، وكان ما يريدون».

لقد أثار أولئك الفتن بطرق عدة، كطعنهم في شخصيات التاريخ أو التركيز على مثالبهم وليس همهم في ذلك إلا الإساءة إليهم بدافع الحسد والحقد والكراهية، قال القاضي أبو بكر (ت-٥٤٣هـ): والناس إذا لم يجدوا عيبا لأحد، وغلبهم الحسد عليه وعداوتهم له أحدثوا له عيوباً، فاقبلوا الوصية ولا تلتفتوا إلا إلى ما صح من

الأخبار، واجتنبوا -كما ذكرت لكم- أهل التواريخ، فإنهم ذكروا عن السلف أخباراً صحيحة يسيرة ليتوسلوا بذلك إلى رواية الأباطيل فيقذفوا في قلوب الناس ما لا يرضاه الله تعالى^(١٤).

وقال في مكان آخر معللاً إشارته السابقة: إنما ذكرت لكم هذا لتحترزوا من الخلق وخاصة من المفسرين، والمؤرخين، وأهل الآداب، فإنهم أهل جهالة بحرمت الدين فلا تبالوا بما رووا، ولا تقبلوا رواية إلا عن أثمة الحديث، ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً إلا الطبري، وغير ذلك هو الموت الأحمر والداء الأكبر، فأما الجاهل هو ابن قتيبه فلم يبق ولم يذر للصحابة رسماً في كتاب الامامة والسياسة إن صح عنه جميع ما فيه، وكالمبرد في كتابه الأدبي (يقصد الكامل في الأدب) وأين عقله من عقل ثعلب الإمام المتقدم في أماليه؟ وأما المبتدع المحتال فالمسعودي، فإنه يأتي منه متاخمة الإلحاد فيما روى من ذلك^(١٥).

ماذا على المؤرخ من مسؤولية؟ وهل له أن يكتب مثالب الناس، أو يعتدي عليهم بالشتيمة؟ قال الرسول ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا

نصيفه»^(١٦).

بهم والترضي عنهم أجمعين.

فالأخبار المروية عنهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه حتى حرف وتشوه، قال ابن العربي عن هذه القضية: «ومن نظر الى افعال الصحابة تبين منها بطلان هذه الهتوك التي يخلقها أهل التواريخ فيدسونها في قلوب الضعفاء، فهذا زياد لما أحس بالمنية استخلف سمرة ابن جندب رضي الله عنه من كبار الصحابة، فقبل خلافته وكيف يظن به على منزلته ان يقبل ولاية ظالم لغير رشده، وهو على ما هو عليه من الصحبة، وذلك من غير اكراه ولا تقية؟ إن هذا لهو الدليل المبين، فمع من تحبون أن تكونوا: مع سمرة بن جندب، او مع المسعودي والمبرد وابن قتيبة ونظرائهم؟»^(٢٠).

لذا كان من المتوجب على المؤرخ طي هذه الصفحات وعدم إظهارها، قال الحافظ الذهبي (ت-٧٤٨ هـ): "إن كثيرا مما حدث بين الصحابة من شجار وخلاف ينبغي طيه، واخفاؤه بل إعدامه، وإن كتمان ذلك متعين على العامة بل آحاد العلماء"^(٢١)، وإن قيل هذا وحكمه عن صحابة رسول الله ﷺ فهو أمر ينطبق كذلك على كتابة تاريخ غيرهم بصورة عامة، إذ ماذا قصد البراد

لقد شعر العلماء المسلمون بعظم مسؤولية المؤرخ، فناقشوا خير التاريخ وشره، وفوائده ومضاره وحرامه وحلاله، قال أحمد بن حنبل (ت-٢٤١ هـ): «ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين والكف عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم»^(١٧) وهذا ما صرح به ابن أبي زيد القيرواني المالكي (ت-٣٨٦ هـ) في مقدمة رسالته^(١٨)، وأضاف ابن حجر على هذه الفتوى ذكر العلة في ذلك فقال: «واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن إجتهد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجريين»^(١٩).

فهذه جملة صالحة من كلام أكابر علماء السلف، يتبين منها الموقف الواجب على المسلم أن يقفه من الآثار المروية في قدح بعض الصحابة بسبب ما يروى عنهم من شجار وخلاف ومقاتلة، كأيام حرب الجمل وصفين وغيرها، فيجب صيانة القلم واللسان عن ذكر مساوئهم، واحسان الظن

ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب^(٢٤).

لقد أدرك الناس بعد الحرب العالمية الثانية أهمية الدور الذي لعبه المؤرخون في إثارة الحروب وبث البغضاء والكراهية، وبادر الخلفاء بعد استسلام إيطاليا إلى منع تدريس التاريخ فيها لأن كتب التاريخ الفاشية كانت تنمي في نفوس الإيطاليين جنون العظمة والغرور^(٢٥)، ولا يخفى ما استجلبته دراسة أحقاد التاريخ من حروب معاصرة.

وقد يكون تعصب المؤرخ - مهما كانت أسبابه ودوافعه -^(٢٦) مدعاة لكتابة غير منصفة، يكون أثرها وبالأعلى الأمة، فلقد قامت الدولة العبيدية على أساس من التشيع المفرط وسموا دولتهم بالدولة العلوية الفاطمية، وغالوا في حب علي رضي الله عنه، فأبغضوا كثيرا من الصحابة، ووضع لهم علماء السوء أكاذيب مفتراة تخدم أهواءهم^(٢٧).

ومن أمثلة التعصب الضار في العصر الحديث ما نقرأه من إجبار بعض المؤرخين في بعض البلدان على إعادة كتابة التاريخ بشكل يحقق أغراض الجهاز الحاكم، ويحط من قدر حكام اعتاد المؤرخون تمجيدهم

من المؤرخين عند ذكرهم أن الخليفة فلانا قد شرب الخمر أو غنى أو فسق أو زنى، ولعلمهم أرادوا بذلك تسهيل المعاصي على الناس، ليقولوا: إذا كان خلفاؤنا يفعلون هذا فلا يستبعد ذلك منا، وساعدهم الرؤساء على إشاعة هذه الكتب وعلى قراءتها لرعييتهم في مثل أفعالهم حتى صار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، حتى سمحوا للجاحظ أن تقرأ كتبه في المساجد، وفيها من الباطل والكذب والمناكير^(٢٨).

لقد أفتى عدد من العلماء المسلمين، ومن مذاهب متعددة بأن التاريخ فرض كفاية ونصيحة يثاب فاعلها إن صدقت نيته واستقامت طريقته، على أن لا يرفع الوضع ولا يضع الرفيع، وإن كان في الواقعة أمر فادح وحق مستور، فينبغي أن لا يبالغ في إفشائه ويكتفي بالإشارة، والمشهور لا تتبع مساويه لأنه غير معصوم^(٢٩).

أما استجلاء المؤرخ لأخبار الثورات والفتن والحماقات التي ارتكبها الإنسان في فترات ضعفه، فهو أمر لا يولد إلا أحداثا شبيهة بها أو أكثر مرارة، فالأرض القاحلة المهملة لا تنبت شجرا مثمرا، والشر لا يولد الخير، والجهل لا يكشف حقيقة الأشياء، قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين

في الماضي، والأمثلة على هذا كثيرة ولا مجال لذكرها هنا^(٢٨).

وعلى العموم فليس المتعصب بأهل لأن يؤخذ الحق من مؤلفاته، لأن المصائب بالعمى لا يقود الأعمى، ولو فعل ذلك لكانت ظلمات بعضها فوق بعض، وقد يكون التاريخ وكتابته مدعاة للتمزق إن أسيء استعماله ففي عام ١٩٠٨م أقصي السلطان عبد الحميد عن منصب الخلافة، وقام أتاتورك باطلاق شعار «تركيا للاتراك»، وأن على تركيا أن تهتم بنفسها، وأن تبحث لها عن انتماء آخر غير انتمائها للعالم الاسلامي، وهنا نشطت الأبحاث الأثرية وبدأ بعث تاريخ تركيا الجاهلي، وخرج المهتمون بهذه الأبحاث الأثرية والتاريخية بنتيجة مفادها: أن شعب تركيا ينتمي إلى الجنس الآري (الأوروبي) وليس له صلة بالعرب، وعلى هذا الأساس قام أتاتورك باتخاذ سلسلة من الاجراءات لقطع كل صلة تربط تركيا بإسلامها وخاصة بالعالم العربي^(٢٩).

واستخدم المستعمرون التاريخ من جديد لتدعيم التجزئة في الوطن العربي، فقد نصت عصبة الأمم في صك انتداب بريطانيا على فلسطين على الاهتمام بالحفريات، وكذلك كان الأمر في سوريا ولبنان، فقد ألف

الفرنسيون لجاناً خلال الحرب في كل من دمشق وبيروت لكتابة تاريخ الشام ويشار في هذا المجال إلى تبرع المليونير الأمريكي اليهودي روكفلر عام ١٩٦٢م، بأموال لإنشاء متحف الآثار الفرعونية في مصر، واشترط أن يوضع هذا المتحف لمدة ثلاثين عاماً تحت اشراف لجنة انتقاها هو نفسه، وكان واضحاً أن هدفه من ذلك، خلق جيل جديد من المتعصبين للفرعونية ثقافياً وسياسياً^(٣٠).

من هذا كله لا بد من وضع تصور لما يجب أن يقوم به المؤرخ من توجيه التاريخ وجهة تخدم البشرية، إن تسجيل التاريخ للغة والعبرة، واستخدامه كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها هو الأمر المطلوب، ولعل هذا ما أراد الله سبحانه وتعالى من ذكر تاريخ السابقين في القرآن الكريم، وكذلك بذكره «الأسوة الحسنة»، قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٣١). كما نلمس هذا من قول أبي الفرج ابن الجوزي (ت-٥٩٧هـ) في المنتظم: "وللسيرة والتواريخ فوائد كثيرة أهمها فائدتان، احدهما: أنه إذا ذكرت سيرة حازم ووصفت عاقبة حاله، أفادت الخوف

من التفريط، فيتأدب المتسلط، ويعتبر المتذكر»^(٣٢).

ولكن من استفاد من التاريخ كعبر؟ قال «هيجل»: «الدرس الوحيد الذي نستفيده من التاريخ هو أن احداً لم يتعلم من التاريخ»^(٣٣)، فالأمريكان قد انسحبوا من فيتنام عام ١٩٧٥م فهل استفاد الروس من هذه الدروس في أفغانستان؟ وغير هذا أمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

ان الغاية من وجود الانسان على الأرض، هي العمل والابداع لا التدمير والقتل، قال تعالى: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون﴾^(٣٤)، فأوقات التدمير أوقات شيطانية وفترات ضعف في تاريخ الانسان، من شأنها تفتيت أجزاء المجتمع، قال توينبي: فكل مجتمع يسير نحو الحضارة فإن أجزاءه تترايط بعضها ببعض بواسطة الافراد الذين ينتمون اليه^(٣٥).

ولعل البعد عن التاريخ السياسي والعسكري واتباع التاريخ العلمي الحضاري بكل معانيه، سيكون سبيلاً لتكوين الثقة بالنفس وبالامكانيات، لأن التراث هو الذي يبقى إذا استقطرنا تاريخ أي أمة بحوادثه الجزئية المتعددة^(٣٦)، وقد يكون الدكتور جورج سارتون محققاً حين دعا في أوائل هذا القرن إلى التركيز على تاريخ العلم، وإهمال التاريخ السياسي والعسكري، إذ ليست القوة العسكرية هي أشد القوى فاعلية حين يدور حولها التاريخ، فضلاً على أنها لا تجعل للتاريخ معنى أو مغزى، فهي تاريخ لشر ما في النفس من قوى، قال تعالى: ﴿إن النفس لأمار بالسوء إلا ما رحم ربي﴾^(٣٧).

إن أهمية الأمة لا تقاس بانتصاراتها في المعارك، وإنما بما قدمته للعالم أجمع في ميادين الحضارة المتنوعة ليرقى في سلم المدنية، قال تعالى: ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾^(٣٨). ورحم الله عمر بن عبد العزيز إذ يقول -

الهوامش:

- (٥) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٤٩، انظر: تاريخ، ج ١، ص ٤-٥.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠٣.
- (٧) انظر: محمد بن صامل السلمي، منهج، ص ٤٩.

- (١) محمد عواد، صناعة، ص ١١٥.
- (٢) الجوهري، الصحاح، ج ١، ص ٤١٨ (مادة أرخ).
- (٣) السخاوي، الاعلان ص ٦.
- (٤) عبد الكريم غرايبة، سر، ص ١.

- (٨) الكافي، المختصر، ص ٣٢٧.
- (٩) السخاوي، الاعلان، ص ٧.
- (١٠) سيد قطب، في التاريخ، ص ٣٧.
- (١١) انظر: الدوري، تفسير، ص ٣، نعمان عبد الرازق السامرائي، في «تفسير، ص ٤١.
- (١٢) أنظر: الدوري تفسير، ص ٣.
- (١٣) الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٥.
- (١٤) ابن العربي، العواصم، ص ٢٤٤/٢٤٥.
- (١٥) ن.م، ص ٢٤٨/٢٤٩.
- (١٦) انظر تخريج الحديث في: محمد بن صامل السلمي، منهج، ص ٢٠٧.
- (١٧) انظر: ابن حنبل، السنة، ص ٧٨.
- (١٨) ابن أبي زيد القيرواني، رسالة، ص ٨.
- (١٩) ابن حجر، فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٤٥.
- (٢٠) ابن العربي، العواصم، ص ٢٤٥.
- (٢١) انظر حول هذا في: ابن تيمية، مجموع، ج ٤، ص ٤٣٤.
- (٢٢) ابن العربي، العواصم، ص ٢٥١/٢٥٢.
- (٢٣) انظر: عبد الكريم غرايبة، سر، ص ٢.
- (٢٤) سورة الانفال آية ٢٥.
- (٢٥) انظر عبد الكريم غرايبة، سر، ص ٧.
- (٢٦) انظر مثل هذه الاسباب في الشوكاني، أدب، ص ٤٠-٤٢.
- (٢٧) الشوكاني، أدب، ص ٧.
- (٢٨) انظر عبد الكريم غرايبة، سر، ص ٧.
- (٢٩) انظر هذه الاجراءات في: جمال عبد الهادي محمد مسعود، منهج، ص ١٤٦-١٤٨.
- (٣٠) ن.م، ص ١٥٢.
- (٣١) سورة الاحزاب آية ٢١.
- (٣٢) انظر: السخاوي، الاعلان، ص ٢١.
- (٣٣) انظر: احمد محمود صبحي، في فلسفة، ص ٨٩.
- (٣٤) سورة الشعراء آية ١٥١-١٥٢، وانظر كذلك: المائدة آية ٦٤، وهود آية ١١٦.
- (٣٥) توينبي، مختصر، ص ٣٤٩.
- (٣٦) قسطنطين زريق، نحن، ص ٢٤٤/٢٢٥.
- (٣٧) سورة يوسف آية ٥٣.
- (٣٨) سورة الانبياء آية ١٠٥.
- (٣٩) سورة الحشر آية ١٠.
- (٤٠) سورة البقرة آية ١٣٤.

